فصل في الكذب

■ الشاعر الذي يفاخر ببسالته و إقدامه وهو في واقع الحال جبان ينفر من صفير الصافر! هل يعتبر رجلاً «كذاباً»؟

والكاتب المبدع الذي يسطّر الصحائف الطوال في ذمّ البخل وهو أبخل من جميع أصحاب الجاحظ، وأقفر من ارضٍ بلقع، هل هو انسان يزيِّف، ويفتئت، ويقول غير الحق والصدق؟!

أعتقد بدءاً ان «الكذب» في عمومه باب كبير، منه أصناف وله فروع، وهو على درجات ومستويات. ينتظمه قبل ذلك وبعده مفهومات يجب أن تتميز في ذهن كل من يريد أن يتحدث فيه أو يجادل حوله.

فهناك، والله المستعان، الكذب الذي نمارسه في حياتنا اليومية، ومنه الأبيض كـ «بَلْف» الزوجات!!، و«زحلقة» الأصدقاء ثقيلي الظل!! ومنه الأسود كأكل السُحت والبهتان ورمي المحصنات والمحصنين، وهذا هو الأشد سواداً، والأكبر إثماً، والأبلغ ضرراً. أما «قرطسة» المدير في ساعات الدوام، والمماطلة في سداد الدين فهي، في عرف المتذاكين من الكذابين، الأقل سواداً. ولكننا، للحق وليس لغيره، نرى ان ما بينها وبين غيرها من الفرق يشبه ما هو قائم بين الغراب والغراب من الاختلاف في ~~الصوت نفسه~~ اللون.

ومن أصناف «الكذب» ما هو مباح، بل مستحب وجميل. وعلى كل من اشتغل بحرفة الكتابة والأدب أن يتحلى بشيء منه. ومنه البسيط كالمبالغات مما يدخل تحت لواء البلاغة وحسن البيان. ومنه المعقد أو المركب كالمشروع الابداعي في جلّه بل كلّه! فحيث ان الابداع هو الخلق، وحيث ان الخلق هنا معناه محاكاة «أخرى» للواقع أي نظرة أخرى للعلاقة بالكون والأشياء فهذا يعني ان الابداع إذن (أو هذا هو الواجب) سيأتي مختلفاً بالضرورة عما يتواتر على ألسنة عموم الناس، وما يخترق ذاكرتهم اليومية. فهو في معادلة الواقع، وغير الواقع «اختلاق»، وهو في منطق الماثل وغير الماثل «ابتداع» فهو بمعنى ما «كذب!» لكنه كما، قلنا قبل قليل، من الكذب المباح المستحب المنصوص على جماله وبهائه. وربما، انطلاقا من هذا، قال المرحوم جدنا العربي: «أعذب الشعر أكذبه».. والمراد بالكذب في هذا المقام ما يمكن أن يسمى بـ: «الكذب الفني».. على وزن ما عُرف في النقد التقليدي بـ «الصدق الفني» أي اخلاص التجربة الشعورية ونقاؤها؟.

وأعتقد ان مثل هذه التسمية جائزة، وليس هناك في ما نعرف ما يصادمها أو يتعارض معها، و إننا بناء عليه، لندعو إلى هذا النوع من الكذب ونحرِّض عليه!

على ان هذا التساهل الكثير في تبسيط قسوة البعد الأخلاقي لمصطلح الكذب قد يغري المزيفين من المبدعين وأنصاف المثقفين باستغلال ما يحدث، ومن ثمّ الدفع بالحوار إلى خارج ساحاته فيعتبرون «التضليل» باباً كاملاً في الأدب،

ويظنون التزييف فصلاً مستقلاً في الفكر، فيسرحون ويمرحون في سوق نخاسة الكلام دون أن تَسْوَدّ لهم وجوه، ودون أن تندى لهم جباه، ودون أن ترفّ لهم أعين، فالوجوه من قديد، والجباه من خشب، والعيون من زجاج. انهم يكتبون غير ما يظنون، ويقولون غير ما يعتقدون، ولا يهمنا ذلك في شيء ما ظلوا في منأى عن الحديث في ما هو متعلق بما يدخل تحت باب المصالح العامة أو وعي الناس وفكرهم ومعتقداتهم. فلا يهمنا أن يدعوا إلى الحب وهم يكرهون. ولا يعنينا أن يزعموا العطف والرحمة والرقة وهم يتجبرون، لكنه يهمنا أن لا يدسوا أنوفهم فيما لا يعلمون، ويعنينا أن لا يقولوا غير الحق في كل ما يعرفون، فلا يغوون الناس، ولا يخدعونهم، ولا يظهرون النور في ما هو ظلام، ولا الحق في ما هو باطل، ولا العدل في ما هو ظلم، ولا السهل في ما هو وعر وشائك ومحفوف بالمخاطر والمهالك.

إن الكـذب هنـا ليس مباحا، بل هو قبيح مستقذر، يحاسب عليه الضمير والتاريخ. وحساب التاريخ لا تغفره لنا مجرد التوبة، ولا تردّه عنا، فقط، الأوبة. والمجتمعـات كلها لا تخلو من الأفاقين والمزيفين والكذابين ولكن الله سبحانه وتعالى على رؤوس هؤلاء، يفضحهم في الدنيا ويلقّيهم سوء العذاب في الآخرة. ونحن لا نريد أن نسترسل في الحديث عن هذا الصنف من كذب المثقفين وذوي الرأي فهـو الكـذب الأجـاج. لا نريـد أن نسترسل لأن هذا سياق سيجرنا إلى التفصيل، ولا يغيب عن فطنة أحد بأن التفصيل فيه حرج كبير للكاتب فالمعذرة المعذرة! وحرج لمن يعنيهم مثل هذا الكلام فالأسد الأسد! فلو جررنا على جميع هؤلاء الغربال فإن النتيجة، والعياذ بالله، ستدخل حتماً في مجال الفضيحة، ونحن لا نريد أن نزيد في حجم قائمة الفضائح، لأن في عالمنا العربي المسكين ما يكفيه عن إضافة أي جديد في هذا الحقل الثرّ الذي ما فتىء يبدو لكل العالم خصباً على كل الأحوال. كما أن الاسترسال في هذا الحديث سيشط بنا عن أنواع الكذب الأخرى الدقيقة والمتوارية، في قليل أو كثير، عن الضوء الكاشف الناجز.

إننا لنسمع، في مجال الكذب، عن مصطلح آخر يخترق ثقافة الكُتّاب وبعض المثقفين، واسم هذا المصطلح «الكذب الاجتماعي»، كأن يتحدث «الشخص» عن ترابط الأسرة ورعايتها في الحين الذي يكون فيه والده المسكين يثوي في أحد دور رعاية المسنين، وأمه الواهنة تحتضر في إحدى المصحات، أما الابن البار فلم ير والديـه هذين منـذ سنـين. وكأن يتحدث الشخص نفسه أو غيره عن النشء وتربيتهم وعلاقة الآباء بهم في الحين الذي يكون فيه ابنه في سجن الأحداث أو أنه تراه يتشرد في الشوارع والأزقة والطرقات. وكأن يتحدث المذكور أو سواه عن الزمـان الرديء والأخـلاق التي تذوب كقطعة السكر، أو تذوي كالهشيم، فالوفاء تلاشى كالدخان، والصدق تداعى كحائط الثلج، في الوقت الذي يكون قد هجر فيه هو كل الأصدقاء الذين تخلفوا عنه في المال أو الجاه أو العلم، وفي

الوقت الذي يكون فيه قد طلّق الزوجة التي وقفت إلى جانبه أيام ضعفه، وفي الوقت الذي يكون فيه قد أنكر أهله الذين أحبوه يوم كان وغداً لا يعرف ما له وما عليه.

اننـا نعرف بعض هؤلاء فنضحك حين نقرأ ما يكتبون، ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عندما نسمعهم يتحدثون أو يتشدقون بكل ما هو طنان رنان في باب الوفاء والنقاء، ثم نستاءل بملء الفم والصدر والجمجمة: الا يخجلون؟ ألا يستحون؟! اننا لا نطالبهم إلا بالقليل القليل من الخجل، ولا نريد منهم إلا القليل القليل من الحياء.

لقد نعرف ان مشروع الاصلاح الاجتماعي مشروع كبير، ولابد أن يسهم فيه الجميع، والكتابة فن له شروط، وليس من شروطها أن يكون الكاتب نبيا مرسلاً أو ملاكاً طاهراً لا تشوب سلوكه أخطاء، ولا يعترض تصرفه أهواء، ولكن هناك مسافة بين الزيف الكامل والطهر الكامل، وهذه المسافة قد تكون قريبة ضيقة لدرجـة الشعـور بأن ما يحـدث ليس سوى خطأ انساني مشروع، وقد تكبر وتتفاقم لدرجة الاحساس بأن الحالة التي امامنا لا يمكن أن تكون إلا تدليساً واستلاباً اخلاقياً، وإن أهون أغراضها وأبسط أهدافها ما هو إلا خداع الناس، ومحاولة استنزاف عواطفهم، واستدرار إكبارهم، والامعان في المثول أمامهم في أثواب مستعارة جميلة،تكفل للمعني اختراق الصفوف، وتسلق أعمدة الضوء، والاستحواذ على حقوق من هو أحق، ومزاحمة من هم أشرف وأبهى وأنظف. وهنـا يتحول الاسهام في مشروع الاصلاح الاجتماعي إلى جناية على المجتمع كله. فبهذه الأثواب المزيفة يؤتمن من ليس أهلاً للأمانة، ويقدّم من هو غير حقيق بالتقديم. فيطغى السلب على الايجاب، ويتسع الخرق على الحائك، فيعمّ الضرر والأذى، ويتهيأ الطريق للشرّ والمصائب والنكبات والكوارث!

نحن لا نقول إلا ان الكاتب أو المثقف انسان، وأن الانسان بطبيعته خطّاء، وما من أحد إلا وله عيوبه وذنوبه. ونحن لا نقول إن من دواعي الأمانة والصدق أن ينشر هذا الانسان تلك العيوب، وأن يعلن للناس تلك الذنوب، فهذا تحميل بأكثـر ممـا يطاق، وهـذا أيضـا قد يحبّب تلك العيوب والذنوب إلى الجهلاء والمغفلين. بل من حق المثقف، أو بالأحرى ومن حق الناس عليه أن يسترها، وأن يفندها ويندد بها وبأمثالها. ولا نعد كذاباً من نهى عن التدخين وهو يدخن، لأنه يريد أن يجنب المجتمع ضرراً ألمّ به وشرّاً وقع فيه. ولا نعد أفاقاً من يرد، بقلب مخلص، عن بعض المعـاصي التي تورط بهـا فهـو لا يريـد لاخوته وأهله أن ينغمسوا فيها وأن يحملوا، في الدنيا والآخرة، سوءاتها ومباذلها. لكننا نعدّ كذاباً من ينهى عن كل تلك الأشياء علناً وهو يروج لها سرّاً، ونعد أفاقاً من يصدّ عن تلك الأشياء في المحافل والأماكن العامة بغرض الابتزاز والخداع والظهور بوجه آخر عن وجهه الحقيقي بينما هو في داخله مؤمن بما يمارس في الخفاء، مقتنع بما يفعله من خلف الحجب والأستار.

لـ «النجوم» من المثقفين أو أشباههم أن يرصعوا صدورهم ببعض المحسنات والمجملات التي لا تضر بأحد، ولا تغمط حق أحد، فلا يهمنا أن يقول مثقف في الاذاعة انه يحب الاستماع إلى فيروز لأنه يعتقد ان ذلك أحرى به من أن يشير إلى الواقع وهو انه لا يستمع في بيته إلاّ لفهد بن سعيد أو سعد إبراهيم. ولا يعنينا أن يدعي مدرس أو صحفي مبتدىء ان كاتبه المفضل هو الشيخ العلامة حمد الجاسر ونحن نعرف انه لم يقرأ كتاباً واحداً من كتب الشيخ. ولا يضيرنا في شيء أن يزعم شاعر «مهكّع» انه يحفظ أشعار الهذليين وحماستي أبي تمام والبحتري ونصف ديوان المتنبي ولسانه لا يستقيم بالانشاد الصحيح في بيت شعر واحد. وليس من الخارق للعادة ـ كما يقول أصحابنا التوانسه ـ أن يزعم محرر فني انه يقدم سلفادور دالي على بيكاسو وهو لم ير في حياته لوحة واحدة لأحد هذين. اننا نبيح لسعيد السريحي أن يقول في مقابلة صحفية بأنه يرى جيرانه وهو لا يراهم، ولمحمد سعيد طيب أن يقول بأنه يركب النقل الجماعي وهو لا يفعل ذلك، ولعبد الله مناع أن ينفي ارستقراطيته وهو منغمس فيها إلى أذنيه، ولعبدالله الفيصل أن يسمي نفسه «محروم» والناس يرون خلاف ذلك. فكل ذلك ممكن ومقبول فمن حق الانسان أن يرى في نفسه ما لا يراه غيره، ومن حقه أن يتزين بما يتمنى أن يكون عليه. بل إن هناك من يرى في مثل هذه الأقوال أو الأفعال جزءاً من رسالة ما يريد أن يوصلها الفنان للناس في مكان ما في زمان ما، ولو سئل السؤال نفسه في ظروف مختلفة لأجاب إجابة مغايرة، ولا تثريب عليه في كل الأحوال، لأن المثقف أو الفنان مدعو في بعض الأحيان لأن ينحت من نفسه أو من غيره مثال «بطل».. ونعني هنا البطل بمفهومه الفني وليس المفهوم الواقعي السائد. وكل هذا نخرجه كلياً من باب الكذب لأنه متمكن كل التمكن في قلب قائمة شروط الفنان.. الفنان الطفل.. الطفل في مفهوم البريء المشاكس.

وعلى ذكر «البطل» فإننا سنبيح لأنفسنا، بدورنا، أن نعود إلى ما يدخل فعلاً في باب الكذب، ذلك الكذب الذي يثير الضجر ويبّعث الغيظ ويدفع الدم، صُعُداً، إلى الرأس. فهناك من ينحت من نفسه مثالاً لـ «البطل» في مفهومه اليومي السائد بينما هو في حقيقته أوهن من دجاجة، وأضعف من قملة، وأخذى من أرنب. وهذا يشمل، بالذات، بعض مثقفي الصالونات من الأدعياء والهلاّسين وذوي الوجوه النحاسية. فهؤلاء حين يصتك المجلس و«تنحبك القعدة» يأخذون بزمام الكلام، وكلام الكلام، فلا تفتر أحناكهم من «الطراطيع» والمفرقعات، ولا تجف حلوقهم من سيل اللغو المدهش: ينقدون الصحافة في جبنها، ويأخذون على الكتاب خذلانهم، وعلى الشعراء نفاقهم، وعلى الأدباء تملقهم واستخذاءهم، وعلى الأكاديميين غيابهم وأنزواءهم. يتحدثون عن الحرية والعدالة، والأخطاء وشبه الأخطاء، وكل ذلك بلغة «سكّينية» حادة، فيتسنمون فجأة في عزّ «المجلس» سُدَّة «البطل» المقدام المفوّه (عجيب أمرك يا دنيا!). ثم تبحث عنهم فيما بعد. أي في غير ذلك المكان لكنك، ورب الكعبة، لا تجدهم البتة، فهم يدخلون في جحورهم كالفئران، فلا هم المجوّدون في المسؤوليات المنوطة بهم إن كانت لديهم مسؤوليات، ولا هم الحاضرون بالرأي الصلب حين يُطلب إليهم ذلك. وكثيراً ما نراهم يندسون بين الصفوف حين تأتي مناسبة للمكاشفة والحوار.

أولئك هم صنف الكذابين الذين لا نرى فيهم علينا أو على الناس من خطر. إنهم فقط يثيرون الضجر، ويبعثون الغيظ. فاتركوهم - أيها الناس - ولا تابهوا لهم، إن وجودهم ضروري لتمييز الذهب من «التنك»، ولتمييز البطل من الطبل.

أما بعد:

فكان هذا فصلاً في الكذب!

المباح وغير المباح.. المستحب والنذل

اللهم أرنا الكذب كذباً وارزقنا اجتنابه.